تعريف بالكتاب

السيد العميد على مائدة الإفطار

أحاديث على مائدة الصباح :

موضوع سهل ، لأنه حديث على مائدة ، وليس بحديث فى محفل ولا فى منتدى من منتديات الأدب والمعرفة ، وليس بطبيعة الحال كلاما مدبجا للكتابة ، ولا لمنشورات الطباعة .

ولو خطر لسائل أن يسأل عن الأهبة التى يتأهب بها المؤلف للتحدث بأمثال هذه الأحاديث لجاز أن يقال انها أهون من كل أهبة يستعد بها المؤلفون لتأليف أى كتاب من كتب هذه المجموعة أو ما يشبهها من المجموعات .

ولكن هل يصيب من يجيب بهذا الجواب ؟

انه ليخطىء أبعد الخطأ بلا خلاف ، فان المؤلفين قد يستجمعون الأهبة لتأليف كتب العلم وكتب الأدب التى اشتملت عليها هذه المجموعة ولا يستطيعون بهذه الأهبة أن يؤلفوا كتاب « السيد العميد على مائدة الافطار » ، بل لا يستطيعون التحدث فى عامة الأمور وخاصتها على هذا النحو الذى نحاه هولمز فى أحاديثه على مائدة السيد العميد ، ثم أحاديثه بعد ذلك على مائدة الأستاذ الجهبذ ، أو على مائدة الشاعر ، أو على مائدة الشاى ، وقد بدأت أوائل هذه الأحاديث وهو فى الثانية والعشرين ، واختتمت وهو يجاوز الثمانين قبيل وفاته بثلاث سنوات .

فالحديث ـ بادىء ذى بدء ـ هبة أندر من هبة الخطابة ، ولا تتوافر لكل عالم أو أديب ولو فى موضوع علمه وأدبه ، وليست مما يتأتى تعليمه

كتعليم الخطابة فى المحافل العامة .. والفرق بينه وبين الخطابة كما بيَّنه هولمز بلباقته المأثورة : أن الكلمة الخطابية كالقذيفة التى تتجه الى الهدف المرسوم فتصيبه أو تخطئه ، ولكن الكلمة فى حديث المائدة كالمجس الذى يتحسس مواقع الهدف ويدور حوله وفوقه حتى يلمسه فى النهاية .

وبعد هذه الهبة المطبوعة يأتى دور الذخيرة التى تسعد المتحدث بمادة الحديث فى مناسباته وقد يخلق بها هذه المناسبات من أطراف الأحاديث التى تتردد فى المجلس ، ولو بدا فى السمع أنها من أبعد الأطراف عن الموضوع ، لأن وفرة الذخيرة التى يستمد منها المتحدث مناسباته تلهمه من تداعى الخواطر ما يربط به بين أبعد الموضوعات وأقربها بغير عناء .

ولقد كانت لهولمز هذه الذخيرة الوافرة التى اجتمعت له من شتى الموارد ولم تزل تتلقى الروافد عاما بعد عام من مطلع شبابه فى العشرين الى ختام حياته وقد ناهز الخامسة والثمانين .

كان أديبا مطلعا على ذخائر الأدب السلفى البليغ ، وكان شاعرا فياض القريحة بالشعر من وحى الحياة ومن وحى الدراسة والاطلاع . وكان على علم بفقه القانون بعد دراسته فى مقتبل شبابه ، وكان طبيبا ماهرا تعلم الطب فى وطنه وأتم تعليمه فى معاهد باريس ، وكان على اتصال بحركات الاصلاح الدينى والدعوات السياسية والتجارب الأدبية والفنية فى زمانه ، وكان أكثر أيامه عضوا فى الأندية الخاصة والأندية المطروقة التى يجتمع فيها بالنخبة من الأدباء والخطباء أبناء الاقليم الذى عرف باسم انجلترا الجديدة (نيو انجلاند) ونبغ فيه جلة الأعلام الفطاحل من الأدباء الأمريكيين فى القرن التاسع عشر ، وهم ذلك الفوج الأول الذى بلغ مرتبة المساواة بينه وبين الأعلام العالميين فى اللغة الانجليزية وسائر اللغات الأوربية .

وقد كان الرجل طبيبا ماهرا فى صناعة العلاج ، ولكن شهرته بالشعر

والحديث فى أندية السمر كانت تغطى على مكانته الطبية وتخيل الى الناس أن ذلاقة لسانه لم تبق له من الوقت ما يكفيه لاتقان معارف الطب والعناية بفنون العلاج !

على أنه كان فى الواقع يحسن الحديث ؛ لأنه يحسن الحياة ، ويحسن فهم الأحياء ، وكان شعره من فيض قلبه وينبوع حياته الاجتماعية مع أبناء قومه ولم يكن فيض قريحة وحسب ، أو فيض لسان وكفى . فلما بليت السفينة المقاتلة التى كانت تسمى فى ديوان البحرية باسم الدستور ، وتلقب على ألسنة الجمهور باسم المدرعة العجوز ، وشاع أن ديوان البحرية ينوى أن يفكها ويلغى اسمها ، نظم قصيدته الحية باسم هذه المدرعة ، واستعاد الى الأذهان ذكرى بطولتها فى حرب الاستقلال حتى وقر فى الأذهان أن الغاءها جناية كجناية العدوان على حياة أبطالها الغابرين ، وتقرر أن يبقى اسم السفينة ولو أعيد بناؤها كله بتركيب جديد على الطراز الحديث .

ولكن شهرة هولمز بالحديث الممتع عوضته أكبر العوض عما فقده من شهرة الطب ، والعلاج ، فكانت الصحف تقرأ ، والأندية تزار ، والمحاضرات تجتلب اليها السامعين من كل فج كلما قيل انه يكتب فى الصحيفة أو يختلف الى النادى ، أو يحاضر المجتمعين من طلاب العلم وغير طلابه فى معاهد الدروس والأسمار .

ولعله كان بين مؤلفى الأحاديث رائدا ممتازا للمحدثين السيكولوچيين الذين يتفهمون الكلام بالوعى الباطن فى أنفسهم وفى أنفس جلسائهم ؛ اذ كانت طريقته فى ادارة الأحاديث تدور على اعتبار المتحدث ثلاثة أشخاص متفرقين يجتمعون للكلام بلسان واحد : وهم المتحدث كما خلقه الله ، والمتحدث كما يظن نفسه بوعيه الباطن ، والمتحدث كما يظنه جليسه باطنا وظاهرا فيما يصرح به أو يخفيه بالتورية فى لغة اللسان.

وهو الذى شرح التحدث بأساليب « الثواليث » فى كتابه الأول ، ولم يفته أن يتبع الشرح بالفكاهة التى ينبغى أن تتبعه ولا تنفصل عنه

لساعته ... فقد كان على المائدة زميل يجالس العميد ، فبادر الى صحفة الفاكهة وهو يقول أنه أول المؤمنين بهذه النظرية . وتناول من الصحفة ثلاث خوخات معا : خوخة لكل شخص من شخوصه الثلاثة .

وصدق الأستاذ براون حين قال فى الحوار التالى ان أحاديث الموائد التى كتبها هولمز من أنجح وأمتع ما ظهر فى الصحافة الأدبية .

وكان ذكر الصحافة يستدعى — ولا بد — سؤالا كالذى سأله زميله الأستاذ بريزون حيث قال مستفسرا : ماذا تعنى بهذا يا مستر براون؟ هل تعنى الغض من القيمة الأدبية لهذا الكتاب بادراجه فى باب الصحافة؟

ووجب أن يسمع جواب هذا الاستفسار كما أجاب به الأستاذ براون حيث نبه الى وصف الصحافة بالأدبية ثم قال : « أحب أن أضيف الى ما أعنيه أن هذه المقالات تنتمى الى الصحافة بمعنى واحد. هو أنها كتبت فى حدود قيد زمنى .. وأن هذه المساجلات التحريرية قد لفتت اليها أنظار القراء وكسبت اعجابهم فى مختلف بلاد العالم لا فى البلاد التى صدرت فيها وحدها » .

ولكننا نضيف الى هذا الاستدراك أنه لم يكن لازما لو جرى الحوار قبل عصر الطباعة فى عهد من عهود الثقافتين اليونانية والرومانية ، أو لو أنه جرى فى بلد من بلاد الثقافة العربية حفظت ذخائرها فيما بين أيدينا من الأمالى والمحاضرات .

الا أن الطباعة قد فرقت فى أحاديث الأدب بين ما يقال فى المجلس وما يقال لينشر فى الصحف أو يقال لينشر فى الكتب بعد التنقيح والتعديل .

أما قبل ذلك فقد كانت أحاديث الأدباء تروى فى الكتب كما تقال فى المجالس ، وقد اقتدى الكتاب بقدوة هذه الروايات بعد انتشار الصحف بزمن طويل ، وكان من هؤلاء الكتاب من يسمى صحيفته باسم « الثرثار » Tatler ويقصرها على موضوعات الكلام التى تشبه

أحاديث الموائد فى البيوت ، وقد كانت أحاديث الموائد يوما ما تتسع لفلسفة أفلاطون وفلسفة ابيقور .

وعلى فرض أن الأحاديث التى حفظتها موائد هولمز قد نشرت بعد التنقيح — وهو غير الواقع المعروف — فهى مادة من مواد المطالعة الأدبية يحسن الرجوع اليها والزيادة عليها فى كل جيل ، ضنا بفن الحديث أن تجور عليه المطبعة أو يجور فيه جانب الدرس والبحث على جانب البداهة والارتجال .

عباس محمود العقاد